غادة أصيلا

١٣١

خرجت الفتاة من الخباء تتهادى في مشيتها واتجهت نحو المدينة متسللة بين الاعشاب والحظائر وكان في اعقابها عبد اسود ربع القامة ثقيل الخطى مشمر الذيل ...

الشمس مائلة الى الشاطيء يكاد قرصها القاني يخضب باشعته الحمراء سطح الماء، والهواءمعتدلعليل يداعبخصلات سوداء كثة تهدلت على كتفي الفتاة التي كانت تدير وجهها الى الوراء من حين لآخر كأنها تستحث خفيرها الأسـود المتثاقل .

وما هي الا فترات حتىظهرت اسوار المدينة وراء الربوة التي كانت تحجبها عن الانظار فوقفت الفتاة وولت وجههـا شطر مسعود ولم تكد تلوح له بيدها حتى وقف ثـم تابعت سيرها.. والعبد يشيعها بنظره حتى دخلت من الباب الكبير الذي كان مفتوحا وسط السور ...

عاد مسعود ادراجه وسط سكون رهيب تتخللههمسات متنائية ...

وصل الى باب الخباء فتهالك على الارض اعياء وطفق ينوك بين شفتيه حروفا متقطعة خافتة .. وكان حارس الخباء يذهب ويجيء في حركة عصبية تنم عن قلق وما هي الا لحظة

حتى تعالى صوت من الداخل جهوريا مقعرا تجاوبت اصداؤه فعكرت ذلك السكون الذي استنام اليه العبد في اغفاءة لذيذة فقام مذعورا كأن مسا فجائيا قد ضغط على نفسه واخذ يدير وجهه يمنة ويسرة يبحث عن شيء أثار منظره الرعب في قلبه ثم عاد الى هدوئه بعد ان وصلت الى مسمعه نبرات صوت سيده وتحقق ان ذلك المشهد الدامي الذي روعه لم يكن سوى اضغاث احلام .

ازاح الحارس ذيل الخباء ودخل فوجد الرجل صاحب الصوت الجهوري يعبر الارض ذهابا وجيئة في اضطراب المحموم !

ولم يكن ذلك الرجل سوى محمد بن عبدالله السعدي الذي كان يقذف وهو على أحر من الجمر كلمات مقطعة مصوبا نظره الى بعد غير عابىء بمن حوله مرددا في لهجة المتسائل الحيران : « ترى هل ستوفق هذه الفتاة في المهمة التي اسندت اليها ؟ ان سعدا شاب مخلص ولا شك انه صادق فيما أكده من كفاءة الفتاة .. على ان تعلق الفتاة بهذا الفتى الجميل سيسهل عليها كل صعب فتستعذب المغامرة في سبيل الحب الذي ملك مشاعرها ! نعم نعم يجب أن لا نيأس ! ان الفتاة فاتنة ولا ريب ان بساطتها الظاهرة ستخدع حرس الامير . لا بل المتآمر ! استغفر الله بل الغاصب .. آه ! اذا قدر لهذا الرجل الذي سلب مني ملكي ان يموت بهذا السم الزعاف فاني ساستريح! ساسترجع المجد والبذخ والهناء ! وعند ذاك

سادبر مكيدة للخلاص من هذا الطاغية البرتغالي الذي وقع في حبائلي ! انه يأمل تملك السواحل ! يا له من اخرق ! وهل يظن أن في سلالة الملوك السعديين من يبيع ضميره بهذه الصورة ! انه مطية عارضة امتطيها للوصول الى غرضي. ويل لهذا الابله مني ! »

وكان عدة رجال أغلبهم شيوخ جالسين على بساط الخباء الزاهي وقد اطرقوا منتظرين ! والقنديل يرسل نورا باهتا يترك جوانب الخباء في ظلام دامس !

ثم رفع الامير راسه ووجه الكلام لفتى طويل القامة مستدير الوجه نجل العينين تعلو بشرته ادمة أعراب لفحهم حر الشمس مع ذبول في الجسم وارتخاء في اللحظ :

« سعد ! يجب ان تظل على اتصال بمارية الى ان تنتهي مهمتها ! » فهز الفتى راسه علامة الايجاب ولمع في عينيه بريق خاطف ثم خرج ويده في أزرار بندقيته تداعبها وهو يقول في همس لا تكاد تسمعه اذن : « اتركها!! آه، ان الموت لأهون ! »

وعاد الامير الى سريره حيث انبطح على بطنه وادرج وجهه بين الوسادة والفراش كأنه يتحاشى منظرا رهيبا يقض مضجعه ... ومن عادة الامير اذا أراد الاختلاء بنفسه ان يلجأ الى السرير فلا يسع حاشيته حينذاك الا الخروج .

.... كانت أشعة باهتة تومض في ارتعاش حول خباء الامير مؤذنة بأن القوم يسمرون وكان مجموع ما في المعسكر زهاء ثلاثمائة شخص انضموا كلهم الى ابن عبدالله عند ما هب لاسترجاع عرشه وكان رجال آخرون قد انتشروا في طول البلاد وعرضها يدعون الناس خفية الى نقض بيعة ابي مروان عم الامير .

ظل الامير يتضور لما شعر بالخلوة ثم قام يتعثر في ذيله ووقف تحت القنديل وطفق ينشد والدمع ينحدر من مآقيه في قطرات معدودات كأن منافذها قد سدت الا بمقدار :

ساروا فسار فؤادي اثر ظعنهم وخلفوني نحيل الجسم حيرانا
لا افتر ثغر الثرى من بعد بينهم ولا سقى هاطل وردا وريحانا

ثم رفع راسه فجاة وكفكف دمعه مصوبا نظره نحو الباب حيث أحس بهمس ... كل شيء يهون عليه الا البكاء امام أصحابه ! وكيف يبكي وهو ذلك الامير الذي تفرق من صولته الابطال ؟ ولكن الصوت الخافت لم يكن سوى همس النسيم في هبوبه خارج الخباء حيث اناخ الظلام الدامس .

وفي تلك الآونة كان احد فتيان المعسكر يهرول في الظلام نحو اسوار المدينة ويستحث خطاه في اضطراب ينم عن نفاذ صبر ورعشة كانها رعشة مقرور اربكت خطاه اغلال الارق !

*

طـــوارىء ...

... لم تكد الفتاة تلج باب المدينة حتى لطفت مـن هرولتها سائرة في مشية متهادية .. وكان الشارع في حركة الرائحين والغادين واصطخابهم على طرفي نقيض من سكون الأرباض .. وكأن الفتاة شعرت باستئناس وسط هـــذا الجم من النسمات المتماوجة فوقفت لتصلح من سحنتها الشعثاء ، ثم استأنفت السير داخل زقاق ولم تصادف في طريقها ولو جلبابا .. وانما هي قبعات وطيئة اشبـه بقبعات نوتية الأسبان .. وسراويل مستطيلة وصدريـات مفتوحة من الامام .. كيف لا وقد غمر المدينة منذ بضعة شهور سيل خضم من اوباش البرتغاليين .. نهبوا كل مـا صادفوا مما خلفه الاصيليون لدى نزوحهم عن مدينتهم .

وكانت الفتاة نفسها من جنس الاسبان غير انها نشأت في احضان اصيلا وسط احياء عربية ، ما لبثت ان وعت نتفا من لغتها فصارت تلفق عبارات مرتبكة الضمائر تدعمها

باشارة من يديها البيضاوين وحاجبيها الازجين وكتفيها المتواريين تحت لفافة حمراء مستطيلة يتهدل ذيلها خلف الفتاة بعد ان يلتف سداه السندسي القاني حول جيد كانه جيد دمية من دمى قشتالة .. او جيد نعامة من نعامات الصحراء نصاعة ورقة .. وكانت الى هذا هيفاء دقيقة الخصر رشيقة القد مائلة الى الطول مع اكتناز .. فاذا نظرت اليها في وضح النهار راعك منها تناسق القسمات وانسجام الاطراف وغضاضة البشرة .. ولكن في هيئتها سمات خفية وفي طبيعتها اريحية غامرة تنم عن اصل عربي .. كيف لا واجدادها الاقربون من اولئك الذين طغى عليهم تيار النصرانية في الفردوس المفقود فتمسحوا على مضض ؟ دخلت الفتاة الى بيت في طرف الزقاق تكاد قامتها تطاول سقفه الوطيء وكان هذا البيت اشبه بحانوت مستطيل قسمته الفتاة بما اوتيت من حذق الى اركان وضعت في احدها سريرا مهلهلا قصبي القوائم ووزعت الباقي بين المطبخ والمستودع ... والفتاة تعيش في هذه الوحشة منذ ان فجعت في والدتها قبل بضعة اعوام ... ولكنها وحشة كان الحب يغمرها بوميض لماع .. آه ! لو اسعفها الحظ بهذا الزواج الذي اصبحت لا تعيش الا في انتظاره !! انها ستكون اسعد الفتيات رغم هذا الكوخ الضيق الذي يؤويها ... ثم طفقت تحدث نفسها في صوت مرتفع معبرة عما يخالج قلبها من تمنيات ، وكانت نظراتها متجهة نحو هدف واحد كانها تخاطب شخصا معينا تتملى بمنظره ... فينطلق لسانها من عقاله ... عقال الاحتشام والحزن الموصول .. انها تتحدث الى سعد الذي لا يكاد طيفه المحبوب يغيب عن مخيلتها طرفة عين ..

وكانت غشاوة عابرة تغطي من حين لآخر هذا البريق الذي تفيض به لواحظها ... وكانها غشاوة اشفاق من خاطر يتوالى عليها نذيره ... وذكرى قاتمة ..

وبينما الفتاة موزعة بين امل غامر وتشاؤم عابر اذا بنقر خفيف على الباب يوقظها من حلمها الذي مازجته اضغاث مؤلمة .. فارتعشت الفتاة وانطفأ اللمعان وانخفض نفسها وتعالت دقات قلبها .. « آه ! انه هو .. ذلك الثقيل الذي ما زال يضايقني منذ شهر .. ويطالعني بمنظره البشع .. ويعترض سبيلي كلما جمعتني واياه طريق خالية .. يظهر فجأة كأننا على ميعاد .. وما اسواه من ميعاد ..! انني اخشاه ! انه وحش .. ان في عينيه شرا ينم عن عاطفة حيوانية .. لا لا ! لن افتح الباب ، ان هذا البرتغالي يخيفني !» .. ثم اجهشت في بكاء خافت لم يكن ليسمعه الطارق المقيت. وتكرر النقر في هدوء ثم تعالى وتضخم حتى صارت كل نقرة بمثابة صاعقة تهد قلب الفتاة الذي كاد ينفطر من الهلع .. انها العفة تشفق من العبث .. انها الانسانية المهزولة الوادعة تفرق من هجمة الذئاب !

وكان وراء الباب شاب اقلقه انتظار الجواب من البيت الذي ترامى النور من خصاص بابه .. انه على احر من الجمر .. انه يخشى ان يكون قد الم بالفتاة امر .. انه لا يطيق صبرا .. اجهد الباب فتكسر بعنف وسقط على وجهه داخل الحجرة .. فاغمي على الفتاة تحت وطأة هذا الهجوم الصارخ في جوف الظلام .. قام سعد من حينه والدم يقطر من جبينه المرضوض .. ثم تهافت على جثة مارية مرعبا .. فالفى الجسد باردا والوجه كالحا ولكن النبض كان يرتجف خافتا رقيقا .. وما هي الا قطرات بلل بها الفتى محيا فاقع اللون حتى انفتحت العينان في نظر لا يرى وتصويب لا يهدف .. ولكن ها هوذا الشعور يرجع شيئا فشيئا .. وها هي ذي الفتاة تحدق في وعي ضعيف ما لبث ان قوي .. فهبت مشدوهة وجست بكلتا يديها هذا الطيف الماثل المتحرك لتتحقق وجوده .. : « سعد ! آه ! انت سعد ! انقذتني يا

سعد .. انه طرق الباب .. انه اراد ان يدخل .. وانا وحيدة .. سعد ! انني لا اكاد اصدق ! اهذا شخصك ام طيفك !.. آه ! انه طيف ! انه لا يتكلم ! انها الصورة المحبوبة التي لا تبرح مخيلتي .. »

ولكن الفتى ضغط ضغطا خفيفا على يديها ، فقفزت من مكانها .. واجهشت بالبكاء .. بكاء الفرح .. فرح بقربه ... وبالنجاة من الطارق !

ظل الفتى ينظر اليها وهو يكاد يجن لانه لم يدرك معنى هذا التعلثم الفامض .. ما الذي داهم الفتاة وقد كانت لعوبا طروبا عند الأصيل .. من هو يا ترى هذا الذي .. مارية ! مارية ! ماذا ؟ قولي !...

وفجأة تعالت جلبة في الخارج !. اصوات .. صخب.. ماذا ؟ استرق سعد نظرة قاطعة الى الشارع من خلال الزقاق الحالك فشاهد جموعا تهرول في اضطراب .. تغدو ثم تروح ثم تغدو .. كأن مسا جنونيا اخذ بتلابيب الجميع.. « ماذا ..! » ولكن تزايد الضوضاء انذر سعدا بطروء خطر .. هل هو جيش احمد السعدي ؟ ام هي فصائل سبستيان؟ لا لا ! ان ملك البرتغال يرابط في ارض الهبط ! انه وراء وادي المخازن ..! لا شك انه جيش فاس قد وصل ! وما هي الا لمحة حتى احتمل الفتى مارية بين ذراعيه واطلق ساقيه للريح شاقا لنفسه الطريق بمقبض بندقيته .. وسط جماهير تموج خلال الظلام !

برد قارس وظلام دامس وارباض قفراء .. ها هي ذي الربوة .. ها هو ذا المعسكر .. ولكن ماذا ؟ لم هذا السكون؟ هل القوم نائمون ..!

طفق الفتى يجري وضفائر مارية منسدلة على صدره.. والفتاة في غيبوبة مطبقة .. ثم تعثر في شيء كاد يهوي منه

على أم رأسه .. ولكنه تماسك .. آه ! انه وتد ! لقد رحل القوم !..

ثم وقف مليا استجماما لفكره الذي توالت عليه هذه الطوارىء المرة ! ولكنه كان شجاعا رابط الجأش ..

كان الريح يهب بعنف من جهة البحر .. فانطلق سعد يعدو محاولا اتقاء التيار الذي تكاد تتقطع منه أوصال جنبيه .. طفق يجري والعرق يتصبب منه رغم هذا البرد الذي خيل اليه أن قدميه قد جمدتا من قوارصه الموصولة ..

استرسل هذا العدو الجامح طوال ساعات تخيلها سعد أياما .. ولكن التعب عقد مفاصله فتهالك على الارض .. ووضع بازائه حمله الوديع بعد أن غطاه بجلبابه الفضفاض..!

*

المشهد الاول : في قصر اشبونة

هذا سبستيان ملك البرتغال جالس في ردهة العرش وحوله كبراء الدولة وشيوخ الدين وعن يمينه جدته العجوز وعن يساره شاب يختلف عن الحاضرين اناقة ومظهرا كانه من امراء قشتالة .

سبستيان يتحدث في وجوم والقوم مطرقون وعـين العجوز تنهمر بالدموع : « ... نعم نعم لا بد لنا من غزوه والاستيلاء على سواحله كلها .. ان ميناء اصيلا غير كاف .. يجب ان نحتل العرائش .. يجب ان نضع اليد على سهول الشاطىء بكاملها ... ان هذه فرصة لا اضيعها .. ان ذلك

الفتى المغرور الذي استنجد بنا بسيط وسنستغل بساطته للتوسع في اراضي هؤلاء (المور) الهرطقيين الملاعين !! »

ولما لفظ الكلمات الاخيرة نظر الى الاساقفة الواقفين امامه كانه يتحسس مبلغ تاثيرها في نفوسهم .. ولكن نظرات هؤلاء كانت جامدة صلبة تنم عن عدم اقتناع وعن شعور بخطر سيداهم البرتغال بسبب هذه المغامرة الخرقاء .. ثم قطعت الجدة السكون الرهيب بصوتها المتهدج لتستأنف تشفعها لهذا الحفيد المغرور الذي يأبى الا المخاطرة بملك ابيه .. وكان رؤساء الدولة واركان الحرب بين محبذ ومفند ولكن معظمهم كانوا في صف المعارضة .. غير ان سبستيان لم يكن بالرجل الذي تلين قناته لهذه الانذارات والاستشفاعات ..

ثم وجه الملك الخطاب للشاب الجالس عن يمينه قائلا : بلغ خالي فيليب جديد تشكراتي على هذه العدد التي امدني بها .. ولكن قل له انني لن اقتصر على احتلال العرائش وحدها لأنني لا اوافقه على ما ارتآه من معادلة هذا الميناء وحده لسائر مراسي المغرب .. وانني سأذهب بعيدا بهؤلاء العشرين الفا من الاسبان الذين ضخم بهم عاهل اسبانيا جيش ابن اخته المدين له ..

ثم وقف الملك مؤذنا بان الجلسة قد ارفضت واشار من طرف خفي الى كل من قائد الجيش واميرال البحر بالمكث .. ولما انفرد الثلاثة بادر الملك القائدين بالكلام قائلا : « ان الوقت قد ضاق. وان ملك المور قد تحداني في رسائل جارحة لا يمكنني ان ارد عليها الا بحد هذه السيوف (واشار الى سيوف معلقة على جدران القاعة) .. وقد اخبرني محمد السعدي عندما كان عندي هنا في اشبونة ان صاليك سوبس ثاروا على عبد الملك عمه .. وانه لا طاقة له بالوقوف طويلا امام جيوشنا الجرارة ! »

فأجاب قائد الاسطول دون ان يتحول عن اطراقه كأنه يتحاشى النظر الى سيده : اذا كان سنيورنا متأكدا من صدق مقالة هذا الشاب فاننا عند الامر .

وبعد أخذ التعليمات من امير البرتغال الشاب خرج القائدان يتعثران في اذيالهما السابغة من فرط التأثر .. وفي الغد اجتازت جيوش سبستيان الى العدوة في مائة وعشرين الف مقاتل فيهم الاسبان والالمان والطليان واربعة آلاف من جنود البابا و ١٥٠٠ من الخيل والف مركب .. وقد وصل سبستيان في الطليعة الى قادس ومنها الى طنجة حيث كان الامير ابن عبدالله في انتظاره .

المشهد الثاني : أبو مروان والمنصور بفاس

وبعد ذلك بأيام (اوائل جمادى الاولى عام ٩٨٦) نزل عبد الملك ضيفا عند اخيه وولي عهده احمد المنصور بفاس وبعد تشريفات خاطفة صعد ابو مروان الى القصر واخوه في عقبه ودخلا ردهة فسيحة قد فرشت جوانبها بالطنافس السندسية وحيطانها بالسجاد الرقيق وارضها بزربية بيضاء ناصعة كانها وليدة اليوم .

لم يكد ابو مروان يجلس حتى ابتدر اخاه مستفسرا : « هل اعددت العدة طبقا للتعليمات التي وجهتها اليك من تامسنا !؟ لقد تهاونت يا أخي بأمر العرائش حيث لا مؤنة ولا بارود وقد اخبرت أن الفا وخمسمائة من جنود النصارى يرابطون في ارباض اصيلا ووصلت الينا ـ كما تعلم ـ شكايات

من جميع رعايانا القاطنين بالسواحل يتذمرون من قرصان البرتغال واوباشهم ... حتى اضطر اهل القصر الى التحصن بالجبال » ..

وكان أبو مروان متلفعا في كساء أبيض لا تظهر منه الا عينان تتقدان ذكاء وغيظا .. وبجانبه المنصور في جلباب بسيط القامة ممتلىء الخدين واسع المنكبين تعلوه صفرة رقيقة .. وقد أجاب اخاه وهو لا يزال قائما : « ان كل شيء على احسن ما يرام .. لقد بعثت الارسال الى مكناسة وقبيلة زمور واولاد جلول لجمع العلف والمؤنة وتبرع الناس عن كل نائبة بصحفة من الشعير وعشرين مدا من القمح وصاع من السمن وكبش لكل اربع نوائب .. وجمع كل ذلك في سلا حيث تحتشد الجيوش الآن .. وقد بلغني ان الناس يتطوعون في الجندية كالسيل .. كما انخرط في سلك الجيش بعض كبار علماء فاس وصلحائها وباقي كبريات مدن المغرب .. كل ذلك تلبية لامر سيدنا وابتغاء رضوان الله بمحاربة هذا الطاغية الغشوم الذي يريد ان يعيث فسادا في أرض الاسلام .. » .

وهنا صاح ابو مروان : « اذا قدر لهذا الطاغية ان يظفر بما يريد فان الاسلام ستندرس اعلامه من هذه الديار ! انني سارحل اليه من الآن بكل ما حشدته في الجنوب من ابطال .. فلتعد راحلتك لصاحبتي في الحين .. »

وما هي الا لحظة حتى اذن في الناس بالنفير من منار القرويين .. وذاع الخبر كالبرق .. وتهافت المتطوعون على المحلة ...

وفي تلك الآونة كان عبد الملك واخوه يحرران رسالة نارية الى سبستيان طاغية اشبونة : « ان سطوتك قد ظهرت في خروجك من ارضك وجوازك العدوة، فان تبت الى ان نقدم عليك فانت نصراني حقيقي شجاع والا فانت ... »

... سار الجيش يقطع سهول الشاطىء حتى بلغ مدينة القصر فنزل للاستراحة والاستجمام ... وبعث ابو مروان لسبستيان رسالة ثانية : (اني رحلت اليك ست عشرة مرحلة أما ترحل اليّ واحدة ؟) .

وكان البرتغال اذ ذاك في موضع يقال له « تهدارت » فنزلوا على وادي المخازن قرب قصر كتامة .. وكانت مكيدة من السلطان .. اذ بمجرد ما عبرت جيوش سبستيان جسر الوادي اصدر عبد الملك امره بنسف القنطرة فهدمتها كتيبة من الخيل تسربت اليها ليلا .. ثم سارت جيوش المسلمين في طريقها نحو الوادي .. وهي تتضخم بفيالق المتطوعين الذين ابتدروا حضور هذا المشهد الحاسم : سار اربعون الفا من الابطال تحت امرة خمسة قواد وقيادة الملك العليا تتقدمهم عجلات تجر اربعة وثلاثين مدفعا ...

*

مارية وسعد يتآمران

ما كاد عمود الصباح ينبلج رقيقا حتى كان شخصان يسيران في خبب حثيث نحو الشمال في طريق موازية للساحل .. هذا سعد يحكي للفتاة السائرة عن يمينه الاحداث التي ادت بهما الى الفرار وهذه مارية تنصت في نشوة للصوت الذي تنعشها نبراته .. سارا جنبا الى جنب ساعات تخيلاها دقائق .. مرت الضحوة ناصعة وتلتها هاجرة كان التسليم الغربي يلطف من لفحها .. واستمر المسير الى ان انسدل سجف الظلام ... فانحاز الرفيقان الى خباء تراءى لهما نوره الخافت عن بعد .. وامضيا ليلة على عتبةالخيمة يرقبان النجوم السواطع .. ويشيعان الليل الراحل بلواحظ فترها

الارق ووقدتها لذة الوصال .! وهل سمعت ان حبيبين اسلما معاقد اجفانهما للكرى في أولى ليالي اللقاء ..؟ كنت لا تسمع وسط هذا السكون الذي لف الحبيبين الا همسات الفضاء الواسع .. وتجاوب نبضات متسارعة الخفقان وكانت المناجاة نفسها صامتة .. لأن في ارتجاف اللحظ مايغني عن اللفظ...

وفي الصباح الباكر استأنفا السير على صهوة حصان اجرد بذل الفتى فيه جميع ما كان في وفاضه من نقود وكان طعامهما اثناء الطريق اقراصا من الدقيق وحبات من الزبيب ، ولعل في الوصال نوعا من التغذية يفمر فيتامينها الخلايا الجسمية بعد أن ينعش الروح !

تعاقب السير والسرى اربعة ايام كانت من اسعد ايامهما .. ولو عددت الفترات التي طغى خلالها سيل الكرى على الحبيبين لما تجاوزت بضع ساعات : وهل كان النوم يوما غير شرود في غمرة الهناء ؟!

... وفي أصيل اليوم الرابع تراءت للراكبين معالم معسكر ضربت خيامه في بطحاء مترامية .. وكانت اعمدة النقع المتعالية في الفضاء تنم عن اضطراب وهيجان ... « من يا ترى هؤلاء المعسكرون ؟ هل هذا جيش البرتغال ؟ ام هي جيوش المنصور وابي مروان ..؟ وقف سعد حيران لا يدري ماذا يصنع .. ووقفت مارية أمامه متلفعة في الجلباب الذي آثرها به فتاها الكريم .. ثم ابرقت عينا سعد بلمعان غريب .. واخرج من جيبه اوراقا طمرها بين الاعشاب .. ثم وجه الكلام لرفيقته قائلا : «لم يعد عندي شك يا مارية في ان هذا المعسكر للسلطان . وليس في وسعنا ان نجتازه لنلتحق بأميرنا أبي عبدالله .. وقد تركت هنا مستندات ربما اشتبه فيها .. ولننضم الآن الى جيش ابي مروان بصفتنا من سكان الجبل بلغنا زحف الامير على جيوش النصارى فبادرنا الى الجهاد .. ولعل وقت مهمتك يا مارية قد وصل .. ولك ان

تتنقلي من زي الانوثة الى زي الرجولة اذا اقتضى الحال .. ان يوم الطعان لا شك قريب .. واذا ما نجحت في هذه المهمة فان آلافا من الأنفس المسلمة البريئة ستنجو من المجزرة التي تنتظرنا جميعا .. واذا ماسم ابو مروان فان من السهل المناداة بامارة ابي عبدالله وسط الميدان .. وقد سارني سيدي يوما فأكد لي انه يرجو الله أن يمهد لهسبيل الانقلاب والكر على سبستيان بجيوش ابي مروان نفسها .. وانت تعلمين ان المسلمين لم يفارقوا ديارهم وذراريهم لمقاتلة امير من ابناء الرسول.. وانماهبوا لمجاهدة هذا الطاغية البرتغالي الذي لم تنطل حيله على سيدي رغم اسراره حسوا في ارتغاء .. اسمعي يا مارية .. انك لا تتصورين مبلغ المي من فراقك .. ولكنه الواجب .. وعسى أن نتلاقى ها هنا تحت هذه الشجرة في القريب .. اذكري ان سعدا في انتظارك ولتعلمي انك بقتل شخص ستنقذين آلاف الاشخاص .. اما انا فاني ساسعى من جهتي في تبرير التجاء سيدي الى البرتغال .. ولست اهدف بذلك الى الدعوة له .. وانما هي الرغبة في تلافي تناحر ستذهب ضحيته طائفتان من المسلمين .. وما عليك انت الا ان تنجزي مهمتك ثم عودي الى الميدان وانتظريني .. واذا ما صادفتني في الميدان فتجاهلي وجودي .. لان للسلطان عيونا ورقباء على من اشتبه فيهم من المتطوعين .. لا سيما اذا كانوا من «جبالة» اذ ربما كان ابو مروان يعتقد ان سيدنا الامير محمد بن عبد الله تمكن من لف ابطال الجبل حوله بفضل الرسالة المسولة التي نشرها في كافة انحاء المغرب .. ان بالمدن الكبرى علماء وفقهاء حذروا الشعب من الانخداع .. ولكن في هذه الجبال .. من يدري؟»

وبعد وداع خاطف تحاشى سعد خلاله النظر الى حبيبته التي كانت في ذهول .. لأن عينيه كانتا تترقرقان

بالدموع .. اتجه كل منهما على حدة نحـو المعسكر كان ليس بينهما صلة .!

ولكن مارية عرجت قبل الالتحاق بالمحلة .. على اجمة مجاورة واحتملت حزمة من الحطب .. وسارت الى معسكر السلطان .. وكان من عادة النساء في البـــادية ان يزودن المعسكر ببعض ما يحتاج اليه من شؤون تافهة كالحطـب والتبن الصالح للعلف .. وقد صبغت الفتاة وجهها ويديها بمسحة رقيقة من الغبار لتخفي ما كان على سحنتها من طراوة الحضر .. أقبلت مارية على المعسكر في مشية متعارجة كأنها تنوء تحت حملها الثقيل .. وكان سعد قد سبقها الى المحلة حيث زود ببندقية ورصاص بعد ان ربط حصانه في اسطبل مرتجل وسط العراء .

ولم يكد حرس المحلة الذين كانوا يطوفون حول المعسكر وقد امتطوا صهوات خيولهم لئلا تتسرب عنـاصر اجنبيـة يشاهدون مارية حتى اشاروا اليها بالوقوف ثم تفرس احدهم في وجهها مليا وسلمها لجندي ابلغها جناح النساء حيث نصبت القدور والكوانين للطبخ والطهي .

*

مضت ثلاثة ايام على وصول مارية الى المحلة ...

وفي اليوم الرابع وهو يوم الاثنين متم جمادى الاولى عام ٩٨٦ انسلت الفتاة من المعسكر في غبش الفجر بعد ان دست في طعام ابي مروان مسحوقا ابيض ..

ثم انحازت الى ربوة مشرفة على المحلة واختفت وراء

الاعشاب تنتظر طلوع الشمس .. كانت تراقب من بعيد كل ما يجري في المعسكر دون أن تصل اليها اعين الرقباء .. وقد سمعت خلال الليل ان القوم مصبحون على العراك .

الفتاة تنتظر كالمحمومة من الاضطراب .. وكأنها تحدث نفسها :

« ها هي ذي ضحوة قاتمة قد وصلت ولما تظهر بعد بوادر العراك .. ماذا ؟ آه ! ها هوذا أبو مروان يخرج بنفسه كالعادة ليتفقد الجيش!.. انه لا يلوح عليه أي أثر للارتخاء... الم يعمل السم عمله ؟ رباه ماذا ؟ انه يخطب : انه يحض الجند على الاستماتة والمصابرة والثبات .. انه ينصب بيده علم القتال .. انه يوجه رسوله لاستنزال النصارى الى الميدان بعد أن ماطلوا جهدهم لربح الوقت واخذ المسلمين على حين غرة .. ان الملك يريد مباغتتهم بعد أن علم من جواسيسه ان مؤنتهم في طريق النفاد.. انه يخشى وصول النجدات.. »

الشمس الآن تكاد تتوسط كبد السماء .. نار المعركة تتأجج .. الابطال يتسابقون .. صهيل الخيل تتجاوب اصداؤه .. صليل الحراب يرن في الفضاء .. هدير البارود يصم الآذان .. الدخان يتصاعد في الاجواء ..!

« هودج الملك يجول في الميدان .. القائد يتردد على الهودج كأنه يتشاور مع الملك . آه ! انني اكاد اجن ! اما فعل السم فعله ! ان سريان مفعوله الفاتك لا يتجاوز عادة بضع ساعات !!

«ماذا ؟ ان فيالق السلطان تتقدم .. انها توغل في صف العدو .. انها تجندل ابطال البرتغال .!

« الاضطراب يسود قلب المعسكر البرتغالي وميمنته ! لا شك أنها عناصر من جنود المسلمين شقت طريقها الى قلب

العدو . المؤخرة تحاول الفرار .. ولكنها تتراجع هالعة امام الوادي المصطخب .. ماذا . هل هدم المورو قنطرة الوادي؟. آه ! انهم قطعوا خط الرجعة على البرتغاليين !

« ها هم النصارى يشعرون بالخطر .. هـا هوذا الاندهاش والجزع يأخذان بتلابيب الجميع ... هـا هي ذي الجموع تتشتت .. ها هي ذي الامتعة تتراكم.. والخيل تشرد جامحة .. والاسلحة وصناديق البارود تتبعثر ...

الحيرة ضاربة اطنابها .. والجند لا يدري معظمه ماذا وقع .. ولكن ها هي ذي صفارة رئيس طوابير المؤخـرة تنادي : « وراءكم ! وراءكم ! قد طعنكم العدو ! لقد اوقد المورو النار في البارود ! الهدوء الهدوء . »

آه ! كيف الهدوء والخطر محدق ! كيف السكـون والسن اللهب يتطاير شررها في الفضاء .. الجيش البرتغالي بين حاجزين : المدافع تقذف النار من افواهها على صفـوف الاعداء .. والنار تضطرم من وراء الاعداء .. ولكن هـؤلاء الجنود يتهافتون على الاعداء فرارا من النار .. صياح وعويل وسط الموج المتلاطم ..

اليم يبتلع فيالق البرتغال .. افراد قلائل ينجون .. البحارة الذين يتقنون السباحة يرابطون مع مراكبهم فـي الميناء .. آه ! لقد غرق الكل .. حتى امير البرتغال .. ها هو ذا الامير محمد يلقي بنفسه في الوادي .. آه ! انه يغالب الموج .. ان اثوابه تثقله . انه يغيب .. ولكن ها هوذا جندي من جنود السلطان يتلقفه ويرجع بجثته الى الشاطىء .

ابطال الجيش السلطاني يرجعون الى المحلة مثقلين بالغنائم .. احمد المنصور يتوسط المحلة .. منبر ينصب .. مناد يصيح : « مات الامير ليحيا الامير ! »

« آه لقد كان ابو مروان ! فعل السم مفعوله ! رباه ! هل علم القوم انني انا التي .. لا لا ! انني فتاة بسيطةمسكينة لا يمكن أن يظنوا بي الظنون .. اني فررت لانني اخشى شرر القتال .. لالا ! لالا افر الآن ! يجب ان انتظر سعدا تحت هذه الشجرة ! (ثم طفقت تبكي وتقول :) ترى اين هو سعد ! ترى هل نجا سعد ! ترى هل قبض على سعد ! ترى هل ما زال يذكرني سعد !... ولكنه في الظاهر « جندي » تطوع في جيش السلطان فكيف يقبض عليه ؟ ولكنه يحبني ! فكيف يتركني ! يجب ان انتظره حتى ولو لقيت في ذلك حتفي وما قيمة الحياة بدون سعد ! (ثم طفقت تصيح :) سعد ! سعد ! س.. ع.. د ! (الى ان اغمي عليها) .

.. ولكن ها هوذا سعد قد نجا ! ها هوذا يعدو صوب الشجرة كالمجنون ! ها هو قد ترك الغنائم والانفال .. للبحث عن غنيمته الكبرى : مارية العزيزة . انه يصل .. يشاهد الفتاة منبطحة على وجهها فيجزع .. ولكنه يجس نبضها فيسكن روعه .. ها هو ينضحها من قارورة في جيبه وتفتح عينيها .. ولكنه يسمع صخبا وراءه فيحمل الفتاة بين ذراعيه ويفر ..

*

يـوم النصر

مضى شهران على يوم النصر ..

نحن الآن في فاس حيث أعلام الابتهاج خفـاقة والسرور طـافح ..

قصر الامير احمد المنصور يتلألأ بمعالم الزينة احتفـاء بيوم النصر ..

هذه وفود تتوالى لرفع آيات الاخلاص وشواهد الطاعة للملك الجديد الذي نصر الدين وانقذ البلاد . .

هذه فيالق الجيش المغربي تطوف بالمدينة وسط الجماهير التي احتشدت لتحيتها وتهنئتها .

وفود ملوك اوربا تصل الى العاصمة بهداياها الثمينة :

موكب الوفود يتجه نحو القصر لتقديم هداياه . . برتغاليون يسوقون في عرباتهم ثلاثمائة الف « دكة » من ريال الفضة ومن الطرف والاثاث الرفيع . . ها قد وصلت الوفود الى القصر ! ها هي تستأذن لتهنئة الامير . .

مندوب السلطان العثماني مراد بن سليم يدخل وبين ذراعيه سيف محلى لم ير مثله مضاء وصفاء متن :

« حيا الله الامير ونصره ! مولانا مراد يبلغ مولانا المنصور تهانئه الاخوية . . ويقدم له هذه الهدية كشاهد على ما بين السلطانين الجليلين من متين الاخاء . . »

فيجيب الامير : « مرحبا بمبعوث اخي مراد . . » ثم يتناول المنصور السيف ويضعه عن يمينه مخاطبا الرجل الذي ظل واقفا بين يديه في خشوع واطراق : « لقد ابينا الا ان نوفد الارسال لملوك الاسلام وفي طليعتهم اخونا مراد لنزف اليهم البشارة . . »

وبعد ان جلس المبعوث التركي على طنفسة عن يمين الامير اذن لمبعوثي الدول الاوربية بالدخول فدخل مبعوث صاحب قشتالة مطرقا في انثناء وناول الحاجب علبة كبرى مملوءة باليواقيت والدر وقصب الزمرد وقال : « ان سنيورنا يرجو من جلالة السلطان قبول هذه الهدية المتواضعة » .

ثم تقدم مندوب ملك فرنسا فناول الحاجب هدية سيده الى سلطان المغرب بعد ان ادى رسم التحية والتهاني . .

وهنا انبرى مندوب البرتغال الذي كان واقفا خلف الاثنين فقال في صوت تهدجت نبراته من التأثر والانفعال : « ان حاكم البرتغال الذي ينوب عن وارث عرشنا السنيور فيليب الثاني ملك الاسبان يرفع الى مولانا الامير خالص التهاني .. ويرجو من مولانا أن يتناسى الماضي القاتم فيتفضل بقبول هداياه التي هي عنوان صداقة جديدة . وباطلاق سراح الاسرى .. »

فاشار الامير المنصور الى الثلاثة بالجلوس على طنافس صففت في احدى زوايا ردهة العرش ثم وجه لهم الخطاب قائلا : انني مسرور بقدومكم الى فاس حيث شاهدتم مبلغ تعلق الامة المغربية بعرش الشرفاء وتفانيها في الطاعة والاخلاص والولاء ! ابلغوا عني ملوككم ورؤساءكم التحية والشكر .. (ثم التفت الى المندوب البرتغالي واتم خطابه قائلا) :

« ان الاسلام لا يخون عهدا ولا يرضى ضيما .. وان من مبادىء هذا الدين الذي نتفانى حكومة وشعبا في الدفاع عنه .. حسن الجوار وحسن العهد .. فان وفيتم وفينا .. وان نكثتم نكثنا .. واذكروا ان وراء البحر اميرا يسهر على كيان بلاده ورعيته ! »

ثم قام المنصور وتقدم الى رؤساء الوفود وصافحهم واحدا واحدا ثم أذن لهم بالخروج ... وكانت الحان الاغاريد تتعالى في الفضاء خارج القصر .. فيتردد صداها في ردهة العرش وتصل نبراتها الى مسمع الامير فتفرورق عيناه بالدموع .. دموع الشكر والغبطة والزهو !

*